الفصل الرابع

التوكل ورعاية الأسباب

التوكل - الذى أمر به القرآن والسُّنَّة - لا ينافى رعاية الأسباب ، التى أقام الله عليها نظام هذا الكون ، وأجرى عليها سُنَّته ، ومضت بها أقداره ، وحكم بها شرعه .

يقول الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى « رسالته » :

« واعلم أن التوكل محل القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قِبَل الله تعالى ، فإن تعسَّر شىء فبتقديره ، وإن اتفق فبتيسيره » (١) .

واستدل لذلك بالحديث المشهور عن أنس بن مالك قال : جاء رجل على ناقة له ، فقال : يا رسول الله ؛ أدعها وأتوكل ؟ أو أرسلها وأتوكل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اعقلها وتوكل » (٢) .

وهذا نص حاسم صريح فى مراعاة الأسباب ، وأنها لا تنافى التوكل .

* *

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية . تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (١/٣٦٨) .

(٢) حديث أنس رواه الترمذى (٢٥١٧) واستغربه ، ولكن له شاهد من حديث عمرو بن أمية الضمرى رواه ابن حبان فى صحيحه « الإحسان » (٧٣١) والحاكم فى « المستدرك » (٣/٦٢٣) بلفظ « قيِّدها وتوكل » وقال الذهبى : سنده جيد . وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٠٣) وقال : رواه الطبرانى من طرق ، ورجال أحدها رجال الصحيح ، غير يعقوب بن عبد الله بن عمرو بن أمية الضمرى وهو ثقة .

● حكايات بعض الصوفية فى إهمال الأسباب :

ومع ذلك روى القشيرى رحمه الله حكايات كثيرة عن عدد من مشايخ الصوفية ، تركوا الأسباب ، بل رفضوها عمداً ، ودخلوا البادية المقفرة من غير زاد ، متوكلين على الله تعالى ، منكرين على مَن يتعلق بسبب ، فى أى وجه ، وأية صورة .

ونقل الإمام الغزالى هذه الحكايات فى كتابه « منهاج العابدين » لتكون نموذجاً يُحتذى للسائرين المريدين للآخرة ، والسالكين للطريق إلى الله تعالى . كما ذكرها فى « الإحياء » محاولاً تبريرها .

يقول بعضهم : حججتُ أربع عشرة حَجَّة ، حافياً ، على التوكل . فكان يدخل فى رجلى شوكة ، فأذكر أنى قد اعتقدت على نفسى التوكل ، فأحكها فى الأرض وأمشى !

يعنى أنه يرى إخراج الشوكة المؤذية من رجله مناقضاً للتوكل الذى اعتقده .

ويقول آخر : إنى لأستحيى من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل (أى عزمت عليه) لئلا يكون شبعى زادًا أتزود به !

وقال آخر : دخلتُ البادية مرة بغير زاد ، فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة (القرية أو محطة الاستراحة) من بعيد فسررتُ بأنى قد وصلت ، ثم فكرت فى نفسى : أنى سكنت واتكلت على غيره تعالى ، فآليت ألا أدخل المرحلة ، حتى أُحمَل إليها . فحفرتُ لنفسى فى الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى ! فسمعوا صوتاً فى نصف الليل عالياً يقول : يا أهل البادية ؛ إن لله تعالى ولياً حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه . . فجاءنى جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية !

ومثل ذلك : مَن وقع فى بئر فنازعته نفسه أن يستغيث ، فقال : أراد الله ألا أستغيث . . ومر رجلان ، فقال أحدهما للآخر : تعال نسد رأس هذه

البئر لئلا يقع فيها أحد . . وشرعا يفعلان . وقد همَّ أن يصيح ، ثم قال فى نفسه : أصيح (أى أشكو) إلى مَن هو أقرب منهما ! إلى الله سبحانه . وسكن لهذا الخاطر ، فيما هو بعد ساعة ، إذا هو بشىء جاء ، وكشف عن رأس البئر ، وأدلى رجله ، وكأنه يقول له : تعلق بى ، قال : فتعلَّقتُ به ، فأخرجنى ، فإذا سبع [1] .

والحكايات من هذا النوع - الذى يعتبره الفقهاء إلقاء بالنفس إلى التهلكة - كثيرة [2] .

* *

● مخالفة هذه الحكايات للسُّنَّة الصحيحة :

ولكن العارفين الراسخين يعلمون أن السُّنَّة على خلاف ما يُحكى عن هؤلاء .

يقول شيخ القوم وسيدهم سهل بن عبد الله : مَن طعن فى الحركة (يعنى السعى والأخذ بالأسباب) فقد طعن فى السُّنَّة ، ومَن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان .

وذلك أن سُنَّة رسول الله ﷺ - القولية والعملية والتقريرية - الأخذ بالأسباب ، والدعوة إلى مراعاتها ، مع تعلق القلب بالله تعالى ، مسبب الأسباب ، وصاحب الخلق والأمر .

فهو يقول للأعرابى فى شأن ناقته : « اعقلها وتوكل » .

ويقول : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو

---

(١) قد يُعترض عليه بأنه ينبغى ألا يتعلق به حتى يتم توكله ، لأنه لون من الأخذ بالأسباب !

(٢) انظر : باب التوكل من « الرسالة » للقشيرى (١/ ٣٦٧ - ٣٨٢) . بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وكذلك : « منهاج العابدين » للغزالى .

خماصاً ، وتروح بطاناً » ، وفيه إشارة إلى التسبب ، لأنه لم يضمن لها الرواح بطاناً ، إلا بعد أن غدت خماصاً ، والغدو حركة وانتشار .

وأحاديثه عليه الصلاة والسلام - فى الدعوة إلى العمل والكسب الحلال ، عن طريق الزرع والغرس ، والصناعة والتجارة والاحتراف - ولو بالاحتطاب - كثيرة وشهيرة . وحسبنا منها قوله : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » (١) ، وحديثه الآخر : « إن قامت الساعةُ وفى يد أحدكم فَسِيلة ، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسَها ، فليغرسْها » (٢) .

وقد رأيناه صلى الله عليه وسلم يعد العدة ، ويهيء الأسباب فى غزواته وسراياه ، ويتخذ الاحتياطات اللازمة لسلامة جيشه ، والمحافظة على جنوده ، ويبعث العيون والطلائع لمعرفة أخبار الأعداء ، والتعرف على نقاط الضعف عندهم . وهذا بيّن لمن قرأ سيرته ، ودرس مغازيه صلى الله عليه وسلم .

ومن روائع ما قرأناه فى سُنَّته وسيرته صلى الله عليه وسلم فى الأخذ بالأسباب : استخدامه « أُسلوب الإحصاء » منذ وقت مبكر من إقامة الدولة الإسلامية ، أى بعد الهجرة إلى المدينة . فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال : « احصوا لى كم يلفظ بالإسلام » حتى لفظة « الإحصاء » استعملها .

وفى رواية للبخارى فى صحيحه أنه قال : « اكتبوا لى مَن يلفظ بالإسلام من الناس » . قال حذيفة : فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل . ويبدو أن إحصاء الرجال القادرين على حمل السلاح كان هو المقصود بالقصد الأول .

فهو ليس إذن عدّاً شفهياً . بل هو إحصاء كتابى - لقوله : « اكتبوا لى » -

---

(١) رواه البخارى عن المقدام .

(٢) رواه أحمد والبخارى فى « الأدب المفرد » عن أنس بسند صحيح .

يُراد تدوينه وتسجيله ، ليعرف منه عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التى يستطيع أن يواجه بها أعداءه المتربصين به ، وما أكثرهم .

كما أن من سيرته وسُنَّته صلى الله عليه وسلم التخطيط للمستقبل ، وإعداد العدة للغد ، كما بيَّنا ذلك بأدلته فى كتبنا من قبل [1] .

كما بيَّنا أن ذلك لا يناقض مبدأ التوكل على الله تعالى .

* *

● بل هى مخالفة لسنن الأنبياء عامة :

وليست هذه سُنَّة محمد - عليه الصلاة والسلام - وحده ، بل هى سُنَّة رُسُل الله وأنبيائه من قبله ، كما هو بيِّن من قصص القرآن عنهم .

فهذا نوح عليه السلام يصنع الفلك كما أمره الله تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [2] لتكون أداة الإنقاذ له ولمن آمن معه إذا جاء الطوفان ، وكان فى قُدرة الله أن يحجز الماء عنه ، وعمن معه ، أو يحملهم فوق الماء بغير سفينة ، ولكن الله أراد أن يُعلِّمنا أن قدرته تعمل من خلال الأسباب التى أوجدها أيضاً . قال تعالى عن نوح : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [3] .

وهذا يعقوب عليه السلام يقول ليوسف بعد أن ذكر له رؤياه : ﴿ يَا بُنَىَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً ﴾ [4] ، ونراه بعد ذلك يخاف على بنيه عند توجههم إلى مصر ، فيوصيهم قائلاً : ﴿ يَا بَنِىَّ لا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ

---

(١) انظر على سبيل المثال : كتابنا « الرسول والعلم » ص ٤٣ - ٤٨ - طبع مؤسسة الرسالة . بيروت ، ودار الصحوة . مصر .

(٢) هود : ٣٧ (٣) القمر : ١٠ - ١٤ (٤) يوسف : ٥

وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَىْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١) .

وسواء أكان يخشى عليهم العَيْن - كما قيل - أو يخشى أمراً آخر يتعلق بالسياسة ، فقد أعطى الأسباب حقها ، وترك النتائج لله تعالى ، ولحكمه الكونى فى الخلق ، وهنا يكون التوكل حقاً : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وهذا يوسف الصِّدِّيق عليه السلام يضع لإنقاذ مصر من القحط والمجاعة خطة خمس عشرية ، وقام هو على تنفيذها ، أساسها زيادة الإنتاج فى سنوات الخصوبة السبع ، مع تقليل الاستهلاك ، وخزن القمح فى سنبله « إلا قليلاً مما يأكلون » ، ثم الاستهلاك بقدر وحساب - من المخزون - خلال سنوات الجدب ، بحيث يكفى السبع الشداد كلها ، كما أشار إلى ذلك القرآن : ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ (٢) . وفى قوله : ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يفيد أن الاستهلاك مقدَّر ومحسوب ، مثل التوزيع بالبطاقات ونحو ذلك ، وفى قوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ إشارة إلى استبقاء بعض الحبوب لتستخدم بذوراً عندما يجىء الغيث ويبعث الله الماء . وإلَّا لم يكن للماء فائدة إذا انعدمت البذور .

وقد قام يوسف بهذه المهمة ، ونجى الله على يديه مصر وما حولها من البلاد ، ببركة هذا التخطيط المحسوب ، ولا يضير ذلك أن كان أساسه رؤيا صادقة ، فالمهم أن الرؤيا أفادت علماً بمشكلة وأزمة ، فطلبت حلاً ، وكانت خطة يوسف هى الحل ، ولم يكن فى ذلك ما ينافى التوكل على الله تعالى ، كيف وقد قام عليه نبى مرسل ، وسجَّله الله فى أعظم كتبه .

وهذا موسى عليه السلام حين سار بأهله من مَدْيَن ، راجعاً إلى مصر ، آنس

---

(١) يوسف : ٦٧ (٢) يوسف : ٤٨

من جانب الطور ناراً ، فقال لأهله : ﴿ امْكُثُواْ إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ، لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (١) وسعى إلى موضع النار ، ولم يجلس حتى يأتيه الخبر ، أو الجذوة ، اتكالاً على الله تبارك وتعالى .

ونجده عليه السلام حين سار ومعه فتاه ليلقى العبد الصالح - الخضر عليه السلام - عند مجمع البحرين ، يصحب معه زاده وغداءه ، ويقول لفتاه : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ (٢) . وحين أمره الله بالخروج من مصر قال له : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ (٣) وذلك ليكون الليل ستاراً له من فرعون وملئه .

ويحدثنا القرآن عن داود فيقول : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ﴾ (٥) ؛ فعمله فى صناعة الدروع السابغات ، التى تحصن لابسيها وتحفظهم من بأس العدو وضرباته . ولم ير القرآن عمل داود هذا مناقضاً للتوكل على الله .

وقد أمر الله تعالى الصِّدِّيقة البتول مريم عليها السلام أن تهز بجذع النخلة ليتساقط عليها الرطب ، رعاية للأخذ بالأسباب ظاهراً ، وإن كان الأمر كله آية وكرامة لمريم ، قال تعالى : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْناً ﴾ (٦) .

وفى ذلك يقول الشاعر :

توكَّـل على الرحـــمن فى الأمر كلـــه ... ولا ترغبنْ فى العجز يوماً عن الطلب

ألـم تـــــر أن الله قال لمريـــــم : ... وهُزِّى إليك الجذع يسَّاقطِ الرطب ؟

---

(١) القصص : ٢٩ (٢) الكهف : ٦٢ (٣) الدخان : ٢٣

(٤) الأنبياء : ٨٠ (٥) سبأ : ١٠ - ١١ (٦) مريم : ٢٥ - ٢٦

ولو شاء أن تجنيه من غير هزة جنته ، ولكن كل شيء له سبب

وفتية أهل الكهف الذين أثنى الله عليهم ، وخلَّد ذكرهم في كتابه ، وقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (١) حين أَوَوْا إلى الكهف حملوا معهم بعض النقود من (الوَرِق) أي الفضة ، ليستطيعوا بها شراء بعض ما يريدون ، كما دلَّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ (٢) ولم يكن ذلك منافياً لتوكلهم على الله تعالى .

* *

● القرآن يأمر برعاية الأسباب :

وها هو القرآن يأمر المؤمنين من أمة محمد ﷺ فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (٣) ، ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٤) .

ويأمر بالصلاة المعروفة باسم « صلاة الخوف » في الحرب ، فيدعو إلى تقسيم المقاتلين إلى قسمين : قسم يُصلِّي وراء الإمام ، وقسم في مواجهة العدو ، ويوصى بأخذ الحذر والسلاح ، حتى لا يهتبل العدو فرصة اشتغالهم بالصلاة فيميل عليهم ميلة واحدة . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى

---

(١) الكهف : ١٣ (٢) الكهف : ١٩

(٣) النساء : ٧١ (٤) الأنفال : ٦٠

مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ (١) .

هذا فى جانب الحرب والإعداد للأعداء .

وفى جانب الرزق ، يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٢) فهذا أمر بالمشى فى مناكب الأرض .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُواْ فِى الأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ (٣) فهذا هو شأن المسلم : عمل وبيع قبل الصلاة ، وسعى وانتشار فى الأرض بعد الصلاة .

وقد وصف الله تعالى رُوَّاد بيوته التى أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه ، فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ (٤) فلم يصنهم بعطالة ولا بطالة ، بل جعل لهم تجارة وبيعاً ، فهم « رجال أعمال » ولكن ذلك لا يلهيهم ولا يشغلهم عن ذكر الله ، وأداء حق الله .

وقال تعالى فى شأن الحج : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

جاء عن ابن عباس أن أناساً من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوَّدون ،

---

(١) النساء : ١٠٢ (٢) الملك : ١٥ (٣) الجمعة : ٩ - ١٠
(٤) النور : ٣٦ - ٣٧ (٥) البقرة : ١٩٧

ويقولون : نحن المتوكلون ! فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ . . . ﴾ الآية [1] .

* *

● هَدْى الصحابة والتابعين فى مراعاة الأسباب :

ومَن نظر فى حال أصحاب رسول الله ﷺ - وهم خير قرون هذه الأمة وأفضل أجيالها - وجدهم يكدحون ويعملون لمعاشهم ، ولم ينقص ذلك من توكلهم على الله تعالى .

كان المهاجرون فى مجموعهم أهل تجارة ، وكان الأنصار أهل زرع .

ولما عرض سعد بن الربيع الأنصارى على عبد الرحمن بن عوف أن يقاسمه ماله وداره وأهله ، قال له : بارك الله لك فى مالك وأهلك ودارك ، إنما أنا امرؤ تاجر ، فدلونى على السوق !

وعمر بن الخطاب يقول بعد سماع حديث الاستئذان ثلاثاً من أبى موسى الأشعرى ، وشهادة أبى سعيد الخدرى بتأكيده : ألهانى عنه الصفق بالأسواق .

وأبو بكر ، حينما بويع بالخلافة ، أراد يذهب إلى السوق - على عادته - يقتات لأهله ، ويتجر ليكسب لهم ما يكفيهم . وهذا - كما يقول أبو طالب المكى - فى أتم أحواله ، حين أُهِّل للخلافة وأقيم مقامة النبوة ، حتى اجتمع المسلمون ، فكرهوا له ذلك ، فقال : لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع ، حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، لا وكس ولا شطط [2] .

وقال معاوية بن قرة : لقى عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن ، فقال :

---

(١) رواه البخارى فى « الحج » . الحديث (١٥٢٣) ، وأبو داود (١٧٣٠) ، والنسائى وابن حبان فى صحيحه . انظر : ابن كثير (١/ ٢٣٨ ، ٢٣٩) ، والفتح (٣/ ٣٨٤) .

(٢) انظر : قوت القلوب لأبى طالب المكى (٢/ ١٧) .

مَنْ أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون . قال : بل أنتم المتأكلون . إنما المتوكل الذى يلقى حبه فى الأرض ، ويتوكل على الله عَزَّ وجَلَّ [1] .

ومن المشهور عنه : أنه رأى جماعة يقعدون فى المسجد بعد صلاة الجمعة ، فأنكر عليهم ، وقال : لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللَّهُمَّ ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ! إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض . أما قرأتم قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُواْ فِى الأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ ؟ [2] .

وقد حكوا عن شقيق البلخى - وهو من أهل العبادة والزهد - أنه ودَّع صديقه إبراهيم بن أدهم ، لسفره فى تجارة عزم عليها . ولم يلبث إلا مدة يسيرة ، ثم عاد ، ولقيه إبراهيم ، فعجب لسرعة إيابه من رحلته ، فسأله عما رجع به قبل أن يتم غرضه ، فقصَّ عليه قصة شهدها ، جعلته يغير وجهته ويلغى رحلته ، ويعود قافلاً .

ذلك أنه نزل للراحة فى الطريق ، فدخل خربة يقضى فيها حاجته ، فوجد فيها طائراً أعمى كسيحاً لا يقدر على حركة ، فرقَّ لحاله ، وقال : من أين يأكل هذا الطائر الأعمى الكسيح فى هذه الخربة ؟ ولم يلبث أن جاء طائر آخر يحمل إليه الطعام ويمده به ، حتى يأكل ويشبع ، وظل يراقبه عدة أيام وهو يفعل ذلك ، فقال شقيق : إن الذى رزق هذا الطائر الأعمى الكسيح فى هذه الخربة لقادر على أن يرزقنى ! وقرر العودة .

وهنا قال له ابن أدهم : سبحان الله يا شقيق ! ولماذا رضيَت لنفسك أن تكون الطائر الأعمى العاجز الذى ينتظر عون غيره ، ولا تكون أنت الطائر الآخر الذى يسعى ويكدح ويعود بثمرة ذلك على من حوله من العمى

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب « التوكل » برقم (١٠) .

(٢) الجمعة : ١٠

والمقعدين ؟! أما علمتَ أن النبى ﷺ قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ؟ (١) .

فقام إليه شقيق وقبَّل يده وقال : أنت أستاذنا يا أبا إسحاق !

* *

● **المحققون يردون على معطلى الأسباب :**

الحق أن المعرضين عن الأسباب بالكلية لا سند لهم من قرآن ولا سُنَّة ، ولا من عمل الصحابة وتابعيهم بإحسان . وهم فى حاجة إلى الاعتذار عنهم مما ارتكبوه ، لا التأسِّى بهم فيما فعلوه !

ولو أن المسلمين فى خير القرون ساروا على هذا النهج ، ما انتصر لهم دين ولا قامت لهم دولة ، ولا تأسست لهم حضارة ، ولا مُكِّن لهم فى الأرض ، فإن هذا التوجه السلبى غريب على العقل الإسلامى ، والروح الإسلامى ، والنهج الإسلامى ، الذى يعمل لتكوين الفرد الصالح ، والأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح ، والأمة الصالحة ، والدولة الصالحة .

والدليل على أنه ليس فضيلة محمودة ، ولا فريضة مطلوبة : أنه لا يمكن تعميمه وطلبه من الناس كافة ، لأنه غير موافق لشرع الله وأمره ، ولا لسُنَّته الثابتة فى ربط المسببات بالأسباب .

ولذا أنكره فقهاء الأُمة المتبوعون ، وأئمتها المعتبرون .

فهذا الإمام سفيان بن سعيد الثورى - وهو إمام فى الفقه ، وفى الحديث ، وفى الزهد واليقين - يقول :

« العالِم إذا لم تكن له معيشة صار وكيلاً للظلمة ، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه ، والجاهل إذا لم تكن له معيشة صار وكيلاً للفُسَّاق » ! (٢) .

---

(١) حديث صحيح متفق عليه عن ابن عمر ، وحكيم بن حزام ، كما فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٦١٢ - ٦١٤) .

(٢) ذكره أبو طالب المكى فى « قوت القلوب » (٢/ ١٦) .

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى : « قيل : لا يستحق التوكل إلا مَن لم يخالط قلبه خوف من شىء ألبتة ، حتى السبع الضارى ، والعدو العادى ، ولا مَن لم يسع فى طلب رزق أو مداواة ألم ! والحق أن مَن وثق بالله ، وأيقن أن قضاءه عليه ماض ، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب ، اتباعاً لسُنَّته (تعالى) وسُنَّة رسوله ، فقد ظاهر صلى الله عليه وسلم فى الحرب بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة على فم الشِّعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال للذى سأله : أعقل ناقتى أو أدعها ؟ قال : « اعقلها وتوكل » ، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل » (١) .

وممن نقد الصوفية فى مسلكهم هذا نقداً موضوعياً ، وإن لم يخل من حرارة وشدة : الإمام أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه الشهير « تلبيس إبليس » . فقد ذكر حكاياتهم ، وعقَّب عليها بالرد فى ضوء الأُصول الشرعية .

نقل رحمه الله عن أحمد بن أبى الحوارى قال : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : لو توكلنا على الله تعالى ما بنينا الحيطان ، ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص .

وعن ذى النون المصرى أنه قال : سافرتُ سنين وما صحَّ لى التوكل إلا وقتاً واحداً : ركبتُ البحر فكسر المركب ، فتعلقت بخشبة من خشب المركب فقالت لى نفسى : إن حكم الله عليك بالغرق فما تنفعك هذه الخشبة ؟ فخليت الخشبة ، وقطعت على الماء ، فوقعت على الساحل !

---

(١) نقله الحافظ ابن حجر فى الفتح (١٠/٢١٢) طبع دار الفكر المصورة عن السَّلَفية .

أخبرنا محمد قال : سألت أبا يعقوب الزيَّات عن مسألة فى التوكل ، فأخرج درهماً كان عنده ثم أجابنى ، فأعطى التوكل حقه ، ثم قال : استحييت أن أجيبك وعندى شىء .

وعلَّق ابن الجوزى على ذلك فقال : قلة العلم أوجبت هذا التخليط . ولو عرفوا ما هيّةَ التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد . وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده ، وذلك لا يناقض حركة البدن فى التعلق بالأسباب ، ولا ادخار المال . فقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ (١) أى قواماً لأبدانكم . وقال صلى الله عليه وسلم : « نِعْمَ المال الصالح مع الرجل الصالح » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنك أن تدع ورثتك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » (٣) .

قال : واعلم أن الذى أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر فقال : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً ﴾ (٦) ، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ، وشاور طبيبين ، واختفى فى الغار . وقال : « مَن يحرسنى الليلة » ؟ وأمر بغلق الباب (٧) وفى الصحيحين من حديث جابر أن النبى ﷺ قال : « أغلق بابك » . وقد أخبرنا أن التوكل لا ينافى الاحتراز (أى فى قوله : اعقلها وتوكل) .

---

(١) النساء : ٥

(٢) رواه أحمد عن عمرو بن العاص (٤/ ٢٠٢) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » (٢٩٩) ، والحاكم (٢/ ٢٣٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وابن حبان فى صحيحه « الإحسان » (٣٢١٠) ، (٣٢١١) وقال الهيثمى : رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح (٤/ ٦٤) .

(٣) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص .

(٤) النساء : ٧١ (٥) الأنفال : ٦٠ (٦) الدخان : ٢٣

(٧) فى الحديث : « أغلقوا أبوابكم وخَمِّروا آنيتكم (أى غطوها) وأوكوا أسقيتكم (أى اربطوا أفواه القِرَب » وأطفئوا سرجكم » رواه مسلم وغيره من حديث جابر ، ورواه الترمذى وصححه من حديث أنس .

وقال الإمام ابن عقيل : « يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل . وأن التوكل هو إهمال العواقب واطراح التحفظ ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط ، الذى يقتضى من العقلاء التوبيخ والتهجين ، ولم يأمر الله بالتوكل إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع فى التحفظ . فقال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ (١) ، فلو كان التعلق بالاحتياط قادحاً فى التوكل لما خص الله به نبيه حين قال له : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ وهل المشاورة إلا استفادة الرأى الذى منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو ؟ ولم يقنع فى الاحتياط بأن يكله إلى رأيهم واجتهادهم ، حتى نص عليه ، وجعله عملاً فى نفس الصلاة وهى أخص العبادات . فقال : ﴿ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (٢) ، وبيَّن علة ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (٣) ، ومَن علم أن الاحتياط هكذا لا يقال : إن التوكل عليه ترك ما علم . لكن التوكل التفويض فيما لا وسع فيه ولا طاقة . قال عليه الصلاة والسلام : « اعقلها وتوكل » . ولو كان التوكل ترك التحرز لخص به خير الخلق صلى الله عليه وسلم فى خير الأحوال ، وهى حالة الصلاة . وقد ذهب الشافعى رحمه الله إلى وجوب حمل السلاح حينئذ لقوله : ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ، فالتوكل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز ، فإن موسى عليه السلام لما قيل له : ﴿ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ (٤) خرج . ونبينا صلى الله عليه وسلم خرج من مكة لخوفه من المتآمرين عليه ، ووقاه أبو بكر رضى الله عنه بسد أثقاب الغار . وأعطى القوم التحرز حقه ، ثم توكلوا ، وقال عَزَّ وجَلَّ فى باب الاحتياط : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ (٥)، وقال : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ (٧) وهذا لأن

---

(١) آل عمران : ١٥٩ (٢) النساء : ١٠٢ (٣) النساء : ١٠٢
(٤) القصص : ٢٠ (٥) يوسف : ٥ (٦) يوسف : ٦٧
(٧) الملك : ١٥

الحركة للذَبِّ عن النفس استعمال لنعمة الله تعالى . وكما أن الله تعالى يريد إظهار نعمه المبداة ، يريد إظهار ودائعه ، فلا وجه لتعطيل ما أودع ، اعتماداً على ما جاد به . لكن يجب استعمال ما عندك ثم اطلب ما عنده .

وقد جعل الله تعالى للطير والبهائم عُدّة وأسلحة تدفع عنها الشرور ، كالمِخلب والظُّفر والناب ، وخلق للآدمى عقلاً يقوده إلى حمل الأسلحة ، ويهديه إلى التحصين بالأبنية والدروع . ومَن عَطَّل نعمة الله تعالى بترك الاحتراز فقد عَطَّل حكمته ، كمن يترك الأغذية والأدوية ثم يموت جوعاً أو مرضاً . ولا أبله ممن يدَّعى العقل والعلم ويستسلم للبلاء . إنما ينبغى أن تكون أعضاء المتوكل فى الكسب ، وقلبه ساكن مُفوِّض إلى الحق ، منع أو أعطى . لأنه لا يرى إلا أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرف إلا بحكمة ومصلحة . فمنعه عطاء فى المعنى . وكم زيَّن للعجزة عجزهم ، وسوَّلت لهم أنفسهم أن التفريط توكل ، فصاروا فى غرورهم بمثابة مَن اعتقد التهور شجاعة ، والخور حزماً . ومتى وُضعت أسباب فأُهملت كان ذلك جهلاً بحكمة الواضع . مثل وضع الطعام سبباً للشبع ، والماء للرى ، والدواء للمرض . فإذا ترك الإنسان ذلك إهواناً بالسبب ، ثم دعا وسأل ، فربما قيل له : قد جعلنا لعافيتك سبباً ، فإذا لم تتناوله كان إهواناً لعطائنا ، فربما لم نعافك بغير سبب لإهوانك للسبب . وما هذا إلا بمثابة مَن بين قراحه وماء الساقية رفسة بمسحاة ، فأخذ يُصلِّى صلاة الاستسقاء طلباً للمطر ، فإنه لا يُستحسن منه ذلك شرعاً ولا عقلاً » ا هـ .

قال ابن الجوزى رحمه الله : فإن قال قائل : كيف أحترز مع القدر ؟ قيل له : وكيف لا تحترز مع الأوامر من المقدِّر ؟ فالذى قدر الذى أمر . وقد قال تعالى : ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (١) .

عن أبى عثمان قال : كان عيسى عليه السلام يُصلِّى على رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال : أنت الذى تزعم أن كل شىء بقضاء وقَدَر ؟ قال : نعم . قال :

---

(١) النساء : ١٠٢

فألق نفسك من الجبل وقل : قدر عليّ ! فقال : يا لعين ؛ الله يختبر العباد ، وليس للعباد أن يختبروا الله تعالى .

قال ابن الجوزى : وفى معنى ما ذكرنا من تلبيسه عليهم فى ترك الأسباب أنه قد لبَّس على خلق كثير منهم بأن التوكل ينافى الكسب .

عن محمد بن عبد الله الرازى قال : سأل رجل أبا عبد الله بن سالم وأنا أسمع : أنحن مُستعبَدون بالكسب أم بالتوكل ؟ فقال : التوكل حال رسول الله ﷺ والكسب سُنَّة رسول الله ﷺ ، وإنما سُنَّ الكسب لمن ضعف عن التوكل ، وسقط عن درجة الكمال التى هى حاله ، فمن أطلق التوكل فالكسب غير مباح له بحال إلا كسب معاونة ، لا كسب اعتماد عليه ، ومَن ضعف عن حال التوكل التى هى حال رسول الله ﷺ ، أبيح له طلب المعاش فى الكسب ، لئلا يسقط عن درجة سُنَّته حين سقط عن درجة حاله .

وعن يوسف بن الحسين قال : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب ، فليس يجىء منه شىء .

قال ابن الجوزى رحمه الله : قلت : هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل ، وظنوا أنه ترك الكسب ، وتعطيل الجوارح عن العمل ، وقد بيَّنا أن التوكل فعل القلب فلا ينافى حركة الجوارح ، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين ؛ فقد كان آدم عليه السلام حرَّاثاً ، ونوح وزكريا نجَّارين ، وإدريس خيّاطاً ، وإبراهيم ولوط زارعين ، وصالح تاجراً . وكان سليمان يعمل الخوص ، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه ، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وقال نبينا ﷺ : « كنت أرعى غنماً لأهل مكة بالقراريط » . فلما أغناه الله عَزَّ وجَلَّ بما فرض له من الفىء لم يحتج إلى الكسب . وقد كان أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة رضوان الله تعالى عليهم بزَّازين.

وكذلك محمد بن سيرين وميمون بن مهران بزَّازين . وكان الزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كريز خزَّازين [1] ، وكذلك أبو حنيفة . وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبل ، وكان عثمان بن طلحة خيَّاطاً . وما زال التابعون ومَن بعدهم يكتسبون ويأمرون بالكسب .

وعن عطاء بن السائب قال : لما استُخْلِف أبو بكر رضى الله عنه أصبح غادياً إلى السوق ، وعلى رقبته أثواب يتجر بها ، فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا : أين تريد ؟ فقال : السوق . قالا : تصنع ماذا ؟ وقد وليت أمور المسلمين ؟ قال : فمن أين أُطعم عيالى ؟

وذكر ابن سعد بسنده عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : لما استُخْلِف أبو بكر جعلوا له ألفين . فقال : زيدونى فإن لى عيالاً ، وقد شغلتمونى عن التجارة ، فزادوه خمسمائة .

قال ابن الجوزى رحمه الله : قلت : لو قال رجل للصوفية : من أين أطعم عيالى ؟ لقالوا : قد أشركت ! ولو سُئلوا عمن يخرج إلى التجارة لقالوا : ليس بمتوكل ولا موقن ، وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين . ولو كان أحد يغلق عليه الباب ويتوكل لقرب أمر دعواهم . لكنهم بين أمرين : أما الغالب من الناس ، فمنهم مَن يسعى إلى الدنيا مستجدياً ، ومنهم مَن يبعث غلامه ، فيدور بالزنبيل فيجمع له . وإما الجلوس فى الرباط فى هيئة المساكين ، وقد علم أن الرباط لا يخلو من فتوح ، كما لا يخلو الدكان من أن يُقصد للبيع والشراء !

عن إبراهيم بن أدهم قال : كان سعيد بن المسيِّب يقول : مَن لزم المسجد ، وترك الحرفة ، وقبل ما يأتيه ، فقد ألحف فى السؤال .

---

(١) أى يعملون فى الخزّ وهى ثياب تُنسج من صوف وإبريسم .

وكان أبو تراب يقول لأصحابه : مَن لبس منكم مرقعة فقد سأل ، ومَن قعد فى خانقاه أو مسجد فقد سأل .

قال ابن الجوزى رحمه الله : وقد كان السَّلَف ينهون عن التعرض لهذه الأشياء ويأمرون بالكسب .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا معشر الفقراء ، ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح الطريق ، فاستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين .

وعن محمد بن عاصم قال : بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا رأى غلاماً فأعجبه سأل عنه : هل له حرفة ؟ فإن قيل : لا ، قال : سقط من عينى .

وعن سعيد بن المسيِّب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون فى تجر الشام .

منهم طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد (وهما من العشرة المبشَّرة بالجنَّة) .

وسُئل أحمد بن حنبل : ما تقول فى رجل جلس فى بيته أو فى مسجده وقال : لا أعمل شيئاً حتى يأتينى رزقى ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، واستدل بالحديث المعروف فى التوكل ، وفيه ذكر : « الطير تغدو خماصا » فذكر أنها تغدو فى طلب الرزق . قال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (٢) ،وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون فى البر والبحر ، ويعملون فى نخيلهم ، ولنا القدوة بهم . قال ابن الجوزى :

« وقد ذكرنا فيما مضى عن أحمد أن رجلاً قال له : أريد الحج على التوكل ؟ فقال له : فاخرج فى غير القافلة ! قال : لا . قال : فعلى جراب الناس توكلت !

وروى الخلال عن أبى بكر المروزى قال : قلت لأبى عبد الله : هؤلاء

---

(١) المزمل : ٢٠ (٢) البقرة : ١٩٨

المتوكّلة يقولون : نقعد وأرزاقنا على الله عَزَّ وجَلَّ ! فقال : هذا قول ردىء . أليس قد قال الله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ﴾ (١) ، ثم قال : إذا قال : لا أعمل ، وجىء إليه بشىء قد عُمِل واكتُسِب ، لأى شىء يقبله من غيره ؟!

قال الخلّال : وأخبرنا عبد الله بن أحمد قال : سألت أبى عن قوم يقولون : نتوكّل على الله ولا نكتسب ! فقال : ينبغى للناس كلهم يتوكلون على الله . ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب . هذا قول إنسان أحمق .

قال الخلّال : وأخبرنى محمد بن على : قال صالح : إنه سأل أباه - يعنى أحمد ابن حنبل - عن التوكل فقال : التوكل حسن ، ولكن ينبغى أن يكتسب ويعمل حتى يغنى نفسه وعياله ولا يترك العمل .

قال : وسُئل أبى وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ويقولون : نحن المتوكلون ، فقال : هؤلاء مبتدعون .

قال الخلال : وأخبرنا المروزى أنه قال لأبى عبد الله : إن ابن عيينة كان يقول : هم مبتدعة . فقال أبو عبد الله : هؤلاء قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا !

وقال الخلّال : وأخبرنا المروزى قال : سألت أبا عبد الله عن رجل جلس فى بيته وقال : أجلس وأصبر وأقعد فى البيت ولا أطلع على ذلك أحداً ! فقال : لو خرج فاحترف كان أحب إلىَّ ، فإذا جلس خفت أن يخرجه جلوسه إلى غير هذا . قلت : إلى أى شىء يخرجه ؟ قال : يخرجه إلى أن يكون يتوقع أن يُرسَل إليه .

قال الخلّال : وحدثنا أبو بكر المروزى قال : سمعت رجلاً يقول لأبى عبد الله أحمد بن حنبل : إنى فى كفاية ، قال : الزم السوق تصل به الرحم وتعود به

---

(١) الجمعة : ٩

على عيالك (أى إن الإمام أحمد رحمه الله طلب من الرجل السعى وإن كان عنده كفايته ، ليعود بالنفع على غيره ، وبخاصة أرحامه) .

وقال لرجل آخر : اعمل وتصدَّق بالفضل على قرابتك .

وقال أحمد بن حنبل : قد أمرتهم ـ يعنى أولاده – أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة .

قال الخلَّال : وأخبرنى محمد بن الحسين أن الفضل بن محمد بن زياد حدَّثهم قال : سمعت أبا عبد الله يأمر بالسوق ويقول : ما أحسن الاستغناء عن الناس .

وروى الخلَّال عن أحمد بن حنبل قال : أحب الدراهم إلىَّ درهم من تجارة ، وأكرهها عندى الذى من صلة الإخوان .

قال ابن الجوزى : وكان إبراهيم بن أدهم يحصد ، وسلمان الخوَّاص يلقط ، وحذيفة المرعشى يضرب اللَّبِن » (١) .

وقد اعتذر لهم أبو حامد الغزالى ، فقال : لا يجوز دخول المفازة بغير زاد إلا بشرطين :

أحدهما : أن يكون الإنسان قد راض نفسه حيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعاً ونحوه .

والثانى : أن يمكنه التقوت بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه آدمى بعد أسبوع أو ينتهى إلى حلة أو حشيش يرجى به وقته .

وعلَّق ابن الجوزى على الغزالى بقوله : « أقبح ما فى هذا القول أنه صدر من فقيه ! فإنه قد لا يلقى أحداً : وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له

---

(١) انظر : تلبيس لابن الجوزي ص ٢٧٨ – ٢٨٥

الخشيش ، وقد يلقى مَن لا يطعمه ، ويتعرَّض بمن لا يضيّفه ، وتفوته الجماعة قطعاً ، وقد يموت ولا يليه أحد . أى لا يلى أمر تلقينه وتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه . . إلخ .

ثم قد ذكرنا ما جاء فى الوحدة (أى من النهى) ، ثم ما المخرج إلى المحن ، إن كان يعتمد فيها على عادة أو لقاء شخص والاجتزاء بالحشيش ؟ ومَن فعل هذا من السَّلَف ؟ وكأن هؤلاء القوم يجزمون على الله سبحانه : هل يرزقهم فى البادية ؟ ومَن طلب الطعام فى البرية فقد طلب ما لم تجر به العادة . ألا ترى أن قوم موسى عليه الصلاة والسلام لما سألوا من بقلها وقثَّائها وفومها وعدسها وبصلها ، أوحى الله إلى موسى أن ﴿ اهْبِطُواْ مِصْراً ﴾[1] وذلك أن الذى طلبوه فى الأمصار ، فهؤلاء القوم على غاية الخطأ فى مخالفة الشرع والعقل والعمل بموافقات النفس » [2] .

* *

● ابن القيم يرد على نفاة الأسباب ، وصلتها بالتوكل :

وممن دخل هذه المعركة بقوة : المحقق ابن القيم ، وذلك فى شرحه لمنازل الهروى ، الذى وصف الدرجة الثانية للتوكل بأنها « التوكل مع إسقاط الطلب ، وغض العين عن السبب ، اجتهاداً فى تصحيح التوكل » .

معناه : أنه يعرض عن الاشتغال بالسبب ، لتصحيح التوكل بامتحان النفس .

قال : « وهذا الذى أشار إليه ، مذهب قوم من العُبَّاد والسالكين ، وكثير منهم كان يدخل البادية بلا زاد ، ويرى حمل الزاد قدحاً فى التوكل . ولهم فى ذلك حكايات مشهورة ، وهؤلاء فى خفارة صدقهم ، وإلا فدرجتهم ناقصة عن العارفين ، ومع هذا فلا يمكن بشراً ألبتة ترك الأسباب جملة .

---

(١) البقرة : ٦١ (٢) تلبيس إبليس ص ٣٠١

فهذا إبراهيم الخوَّاص كان مجرداً فى التوكل يدقق فيه ، ويدخل البادية بغير زاد . وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض . فقيل له : لِمَ تحمل هذا ، وأنت تمنع من كل شيء ؟ فقال : مثل هذا لا ينقص من التوكل ، لأن لله علينا فرائض . والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد ، فربما تخرَّق ثوبه . فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته ، فتفسد عليه صلاته . وإذا لم يكن معه ركوة فسدت عليه طهارته . وإذا رأيتَ الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه فى صلاته .

أفلا تراه لم يستقم له دينه إلا بالأسباب ؟ أوَ ليست حركة أقدامه ونقلها فى الطريق والاستدلال على أعلامها - إذا خفيت عليه - من الأسباب ؟

فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً .

نعم . . قد تعرض للصادق أحياناً قوة ثقة بالله . وحال مع الله تحمله على ترك كل سبب مفروض عليه . كما تحمله على إلقاء نفسه فى مواضع الهلكة . ويكون ذلك الوقت بالله لا به . فيأتيه مدد من الله على مقتضى حاله . ولكن لا تدوم له هذه الحال . وليست فى مقتضى الطبيعة . فإنها كانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء فحُمل عليها . فإذا استدعى مثلها وتكلَّفها لم يُجَب إلى ذلك . وفى تلك الحال : إذا ترك السبب يكون معذوراً لقوة الوارد ، وعجزه عن الاشتغال بالسبب . فيكون فى وارده عون له ، ويكون حاملاً له . فإذا أراد تعاطى تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع فى المحال .

وكل تلك الحكايات الصحيحة التى تُحكَى عن القوم ، فهى جزئية حصلت لهم أحياناً ، ليست طريقاً مأموراً بسلوكها ، ولا مقدورة ، وصارت فتنة لطائفتين :

طائفة ظنتها طريقاً ومقاماً ، فعملوا عليها ، فمنهم مَن انقطع . ومنهم مَن رجع ولم يمكنه الاستمرار عليها ، بل انقلب على عقبيه .

وطائفة قدحوا فى أربابها ، وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل ، مدَّعين

لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ، إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك ، ولا أخلَّ بشيء من الأسباب . وقد ظاهرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين يوم أُحُد . ولم يحضر الصف قط عرياناً . كما يفعله مَن لا علم عنده ولا معرفة . واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه ، يدله على طريق الهجرة . وقد هدى الله به العالمين ، وعصمه من الناس أجمعين . وكان يدخر لأهله قوت سنة ، وهو سيد المتوكلين . وكان إذا سافر في جهاد أو حَجٍّ أو عُمْرة حمل الزاد والمزاد ، وجميع أصحابه ، وهم أولو التوكل حقاً . وأكمل المتوكلين بعدهم : هو مَن اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة ، أو لحق أثراً من غبارهم . فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها ، بها يعلم صحيحها من سقيمها . فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم مَن بعدهم . فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب ، وأن يُعبد الله في جميع البلاد ، وأن يوحَّده جميع العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد ، فملؤا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً ، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان ، وهبَّت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقيناً وإيماناً ، فكانت همم الصحابة - رضي الله عنهم - أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي ، فيجعله نصب عينيه ، ويحمل عليه قوى توكله »[1] .

* *

● عمارة الأرض مقصد شرعي وضرورة للأمة :

ثم هنا أمر مهم أغفله الصوفية الذين اعتقدوا التكسب والاحتراف منافياً للتوكل ، هذا الأمر هو : مراعاة مقاصد الشرع من المكلَّفين من نوع البَشر .

---

(١) مدارج السالكين : ٢/ ١٣٣ - ١٣٥

فقد ذكر الإمام الراغب الأصفهانى : أن هذه المقاصد تتمثل فى ثلاثة :

الأول : العبادة لله ، وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

الثانى : الخلافة عن الله . وإليها يشير قوله : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢) .

والثالث : العمارة للأرض ، وإليها يشير قوله : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) .

وعمارة الأرض : بإصلاحها وإحيائها وإشاعة الحياة والنماء فيها ، حتى يكون فيها جنَّات من نخيل وأعناب ، وحدائق ذات بهجة ، وثمر ينظر إلى ينعه ، ويؤكل منه ، ويؤخذ حقه يوم حصاده ، وأنعام وخيل ، وأنهار وديار ، وصناعة وتجارة . . إلى آخر ما لا بد للحياة منه . .

وهذا عمل يجب أن يتعاون الناس فيه ، ويقوم كلٌ بما يمكنه من جهد ، ولا يجوز أن يعمل البعض ، ويظل الآخرون كَلًّا عليهم ، فيأخذون ولا يعطون ، ويستهلكون ولا ينتجون . فهذا ليس من العدل .

فالمتعطل عن الكسب والكدح فى الحياة عالة على غيره ، فما لم يكن عاجزاً عن الكسب ، أو متفرغاً لطلب علم نافع ، فهو مذموم ، ولو اقتدى به المسلمون لفسدت الأرض ، وأمسوا عبيداً لغيرهم من الأقوياء العاملين .

إن الإنسان المثالى فى النصرانية هو « الراهب » الذى يعتزل الحياة ، فلا يعمل لها ، ولا يأكل من طيباتها ، ولا يستمتع بزينة الله فيها ، حتى الزواج يُحرِّمه على نفسه .

ولكن الإنسان المثالى فى الإسلام هو الذى يجمع الحسنتين ، ويعمل

---

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) البقرة : ٣٠ (٣) هود : ٦١

للدارين ، فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل للآخرة كأنه يموت غداً ، كما جاء ذلك عن الصحابة .

إن الكسب والعمل الدنيوى ليس مجرد أمر مباح ، بل هو مطلوب ، طلب استحباب أو طلب وجوب ، إذا نظرنا إلى ضرورته للمجتمع والأُمة .

وهذا ما نبَّه عليه الإمام الراغب رحمه الله فى كتابه القيم « الذريعة إلى مكارم الشريعة » فقال تحت عنوان « وجوب التكسّب » :

« التكسب فى الدنيا ، وإن كان معدوداً من المباحات من وجه ، فإنه من الواجبات من وجه ، وذلك أنه لما لم يكن للإنسان الاستقلال بالعبادة إلا بإزالة ضروريات حياته ، فإزالتها واجبة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فواجب كوجوبه .

وإذا لم يكن له إلى إزالة ضرورياته سبيل إلا بأخذ تعب من الناس ، فلا بد إذن أن يُعوِّضهم تعباً من عمله ، وإلا كان ظالماً ، فمَن توسَّع فى تناول عمل غيره فى مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك ، فلا بد أن يعمل لهم عملاً بقدر ما يتناوله منهم ، وإلا كان ظالماً لهم ، سواء قصدوا إفادته أو لم يقصدوها ، فمن رضى بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم إلا قليلاً ، يُرضَى منه بقليل من العمل . . . ومَن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعاً ، فإنه لم يأتمر لله تعالى فى قوله : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (١) ، ولم يدخل فى عموم قوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٢) . ولهذا ذُمَّ مَن يدَّعى التصوف فيتعطل عن المكاسب ، ولم يكن له علم يؤخذ منه ، ولا عمل صالح فى الدين يُقتدَى به . فإنه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم ، ولا يرد إليهم نفعاً ، فلا طائل فى مثلهم إلا بأن يكدّروا المشارع (المياه) ، ويغلوا الأسعار .

---

(١) المائدة : ٢ (٢) التوبة : ٧١

ومن الدلالة على قبح فعل مَن هذا صنيعه : أن الله تعالى ذم مَن يأكل مال نفسه إسرافاً وبداراً ، فما حال مَن يأكل مال غيره على ذلك ، ولا ينيلهم عوضاً ، ولا يرد عليهم بدلاً » ؟! (١) .

وقال فى موضع آخر : « مَن تعطَّل وتبطَّل فقد انسلخ من الإنسانية ، بل من الحيوانية ، وصار فى عداد الموتى » .

ونقل العلامة المناوى فى كتابه « فيض القدير » عن بعض العارفين من الصوفية قوله : حكم الفقير (أى الصوفى) الذى لا حِرْفة له كالبومة الساكنة فى الخراب ليس فيها نفع لأحد !

وقال العارف الخوّاص : الكامل مَن يسلِّك الناس (يدلهم على سلوك الطريق) وهم فى حرفهم (٢) . وهذا هو التصوف السليم ، والصراط المستقيم .

* *

● إشاعة السلبية فى دنيا المسلمين :

وأحب أن أذكر هنا أن الصوفية لم يدعوا الناس جميعاً إلى توكلهم هذا ، بل دعوا إلى ذلك مَن زعموا أنهم خواص الناس والأقوياء منهم . وقالوا : إذا شكا الصوفى الجوع بعد خمسة أيام ، فألزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب .

ولكن خطر هذه الأفكار أنها شاعت فى دنيا المسلمين ، وأنشأت جواً من السلبية ، وإغفال سنن الله ، وإهمال أمر الحياة بين جماهير المسلمين ، وباتت

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، للراغب ص ٣٨٠ ، ٣٨١ تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمى ، نشر دار الصحوة بمصر .

(٢) فيض القدير (٢/ ٢٩٠ ، ٢٩١) فى شرح حديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف » .

هذه الأدبيات « المخدِّرة » هى القوت اليومى لعقول العوام فى ديار الإسلام ، وكانت من أسباب التخلف الذى جعل المسلمين فى مؤخرة الأُمم ، وقد كانوا فى طليعة قافلة الحضارة عدة قرون .

ومن المؤسف : أن نجد فى عصور التخلف - التى تراجع فيها الفكر الإسلامى الصحيح ، ليحل محله الفكر الخرافى ، أو الفكر المنحرف - قد ترعرعت فى الجو الدينى - الشعبى خاصة - أفكار وأفهام غير صحيحة ولا مستقيمة مع منهج الإسلام الكلى ، ولا مع أدلته الجزئية ، ولا مع مقاصده الشرعية ، واتخذ منها خصوم الاتجاه الإسلامى تكأة للطعن فى الإسلام نفسه ، وفى كل دعوة تنادى بالرجوع إليه عقيدة وحضارة ومنهاج حياة .

ومن ذلك : اعتبار « الزهد » رفضاً للدنيا . واعتبار « التوكل » رفضاً للأسباب ، اعتماداً على شبهات واهية ، اعتبروها أدلة مُحْكمة ، لأن بعض الصوفية استدلوا بها .

* *

● استدلالات مردودة :

فقد استدلوا هنا بموقف الخليل إبراهيم حين أُلقى فى النار ، فسأله جبريل : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ! فاعتبروا هذا إعراضاً عن الأسباب . والحق أن هذه القصة لم يصح بها سند [1] ، ولو صحَّت فالواضح : أن الأسباب هنا قد انقطعت ، ولم يبق إلا الله وحده ، وتوسيط جبريل هنا لا ضرورة له ، فعلمه تعالى بحال الخليل ، يغنى عن توسيط جبريل ، وكفى الخليل عليه الصلاة والسلام أنه لم يفتأ - منذ أُلقى فى النار - يقول : حسبى الله ونِعْمَ الوكيل . وهذا ما جاء فى الصحيح عن ابن عباس .

واستدلوا بموقف آخر للخليل عليه السلام ، حين ترك هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذى زرع ، وترك عندهما جراباً فيه تمر ، وسِقَاءً فيه ماء ،

---

(١) رواها الطبرى فى تفسيره (١٧/ ٤٥) من طريق معتمر بن سليمان التيمى عن بعض الصحابة .

فلما تبعته هاجر ، وقالت له : إلى مَن تدعنا ؟ قال : إلى الله . قالت : رضيتُ بالله [1] ، وهذا كان يفعله بأمر الله ووحيه ، كما قال الحافظ ابن رجب [2] .

وفى رواية لهذه القصة فى البخارى : أن إبراهيم حين ترك أُم إسماعيل وابنها وقفّى منطلقاً ، تبعته ، فقالت : يا إبراهيم ؛ أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيّعنا . ثم رجعت [3] . وما كان بأمر الله ووحيه ، يجب أن يُطاع تعبداً ، ولو لم يُعرف معناه ووجهه . كأفعال الخضر عليه السلام . ولكن لا يُقاس عليها . فلو أن رجلاً وضع امرأته وطفلها الرضيع فى برية وتركهما ، لكان مسيئاً .

واستدلوا بما ذكرنا قبل من حديث : « لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » ، وقد نبهنا من قبل إلى ما ذكره الإمام أحمد وغيره : أن فى الحديث إشارة إلى السعى والتسبب .

وقال بعض العلماء : إنه سعى ، ولكنه سعى يسير ، والسعى اليسير لا ينافى التوكل . والحق أنه السعى الممكن لهذه الطير ، فليس عندها سعى أكثر منه ، فكل ما تملكه هو الغدو والانتشار . وبعضها يطير مسافات طويلة من أجل رزقه .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « الأنبياء » عن ابن عباس موقوفاً ، وفيه بعض كلمات مرفوعة (٣٣٦٥) . وقال ابن كثير فى « البداية والنهاية » (١/١٥٦ - طبع بيروت) : وفى بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات .

(٢) انظر : جامع العلوم والحكم (٢/٥٠٣)- طبع الرسالة . بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط .

(٣) هذه الرواية فى البخارى أيضاً عن ابن عباس برقم (٣٣٦٤) .

واستدلوا ببعض الأقيسة الفاسدة التى ذكرها بعض الشعراء ، كقول القائل :

جرى قلم القضاء بما يكون فســـيّان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين !

وهذا الكلام باطل مردود . فإن جريان قلم القضاء بما يكون ، لا يقتضى التسوية بين الحركة والسكون . فإن مما جرى به قلم القضاء أن فى الحركة بركة ، وأن فى الجمود هلكة ، وأن مَن جَدَّ وجد ، ومَن زرع حصد ، وأن قلم القضاء كما يجرى بالمسببات يجرى بأسبابها .

وقد سئل النبى ﷺ عن الأدوية والأسباب والتقاة : هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « هى من قدر الله » . وهذا الجواب من روائع الكلم النبوى الذى يجب أن يُعلَّم للناس ويُشاع بين المسلمين . وهو : أن نرد قدر الله بقدر الله ، كما فى هذا الحديث . ونفر من قدر الله إلى قدر الله ، كما قال عمر . وندفع الأقدار بعضها ببعض ، كما نقل ابن تيمية عن الشيخ عبد القادر الجيلانى : ليس الرجل مَن يستسلم للقدر ، إنما الرجل من ينازع القدر بالقدر !

وأما جعله السعى للرزق جنوناً ، فهو اتهام لكثير من الأنبياء - مثل سيدنا داود وسيدنا موسى ، وسيدنا رسول الله - وللصحابة الكرام ، وللعلماء الأعلام ، الذين اشتهروا بحرفهم مثل : الخصَّاف والقفَّال والبزَّار والبزَّاز والجصَّاص ، وأمثالهم - اتهام هؤلاء جميعاً بالجنون ، وهذا لا يقوله إلا مجنون !

وقوله : ويرزق فى غشاوته الجنين ، يعنى قياس الإنسان البالغ القادر الراشد على الجنين فى بطن أُمه ، وهو قياس فاسد ، لأن حكمة الله اقتضت أن يهيىء للجنين رزقه بغير كسبه ولا اختياره ، حيث لا قُدرة له ، وبعد ولادته هيأ الله له اللَّبن فى ثدى أُمه ، فلا يدخل إلى جوفه إلا بحركة منه ،

وهو : أن يلتقم الثدى ويمتص منه بفمه ، وبعد أن تظهر له سن تقطع يُطلب منه أن يأكل . فأين هذا مما يقول الشاعر المخلِّط ؟ !

* *

● متى تُذَم الأسباب :

إنما تُذَم الأسباب إذا تعلَّق القلب بها وحدها ، وجعل كل اعتماده عليها ، ونسى مسببها وخالقها ، وجهل أن الأسباب لا تعمل وحدها ، فربما أهمل سبباً بعيداً أو خفياً ، أو أغفل شرطاً لازماً ، أو كان هناك مانع قوى يعوق سببه ويبطل تأثيره . فإنه إذا بذر الحبة فى الأرض الخصبة ، وتعهدها بالرى والتسميد ونحو ذلك ، لا يملك تعهد البذرة فى أعماق التربة ، ولا يملك تصريف الرياح ودرجات الحرارة والبرودة التى تؤثر فيها ، ولا الآفات السماوية التى يمكن أن تحيق بها ، فلا يملك المؤمن هنا إلا أن يقول بعد سببه واجتهاده : نبذر الحَب ، ونرجو الثمر من الرب .

وقد ذكر القرآن لنا نموذجاً من الاعتماد على الأسباب الظاهرة وحدها ، فإذا هى لا تحقق نتائجها وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (١) .

لقد خُذلوا وهم كثرة ، حيث غرَّهم الكم ، وأذهلهم عن التوكل ، فلم يغن الكم الكثير شيئاً . على حين انتصروا وهم قِلَّة ، إذ كان اعتمادهم على الله وحده ، بعد أن بذلوا ما استطاعوا .

* *

---

(١) التوبة : ٢٥

● **ما تعجز عنه الأسباب تكمله القدرة للمتوكل :**

وثمرة التوكل هنا : أن المتوكل على الله حين يُقدِّم من الأسباب - التى أُمِرَ بها - ما يقدر عليه ، ويدخل فى وسعه ، تُكمل له القدرة الإلهية العليا ما يعجز عنه ، ولا يدخل فى وسعه .

انظر إلى موسى عليه السلام ، وقد أوحى الله إليه : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ (١) ، فخرج بقومه فى جنح الليل ، فارين من فرعون وملئه ، متجهين ناحية البحر ، والظاهر أنه خليج السويس . وشعر فرعون وجنوده بخروجهم ، فاتبعوهم مشرقين ، يريدون أن يفتكوا بهم ، فهم يملكون العدد والعُدد ، مع الغيظ والغضب : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٣) .

لقد نظر أصحاب موسى إلى الأسباب وحدها ، فقالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ . سيدركنا فرعون وجنوده ، وينكلون بنا ، ولا طاقة لنا بهم ، ولا نجاة لنا منهم ، فالبحر أمامنا ، وهم من خلفنا !

ولكن كليم الله موسى لم يقف عند ظواهر الأسباب ، بل رنا ببصيرته إلى ما هو أعلى منها ، إلى خالق الأسباب ، وواضع السُنَن ، ومدبر الأمر كله .

لقد فعل موسى ما أُمِرَ به وما قدر عليه ، وبقى ما لا يقدر عليه ، ولا حيلة له فيه ، ولكنه كان موقناً أن الله معه ، ولن يتخلى عنه ، وسيهديه إلى حل ينقذه ومَن معه ، لا يعرف ما هو ، إلا أنه مستيقن من وقوعه .

وكيف لا ، وقد قال الله له منذ أرسله وأخاه هارون إلى فرعون :

---

(١) الدخان : ٢٣ (٢) الشعراء : ٥٤ - ٥٦ (٣) الشعراء : ٦١ - ٦٢

﴿ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (١) . لا عجب أن قال موسى بكل اطمئنان : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢) .

وقد هداه الله إلى المخرج من المأزق بأمر لم يكن فى حسبانه ، ولا فى حسبان أحد : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ (٣) .

هذه هى ثمرة التوكل إذا انقطعت الأسباب .

وانظر إلى محمد ﷺ يوم الهجرة ، كيف أخذ بكل الأسباب الممكنة للبشر ، خطَّط فأحكم التخطيط ، ورتب فأحسن الترتيب ، وأعدَّ لكل أمر عُدته المناسبة ، هيأ مَن يبيت فى فراشه (علىّ بن أبى طالب) ، ومَن يرافقه فى رحلته (أبا بكر الصدِّيق) ، ومَن يدله على الطريق (عبد الله بن أريقط) ، واختار الغار الذى يختفى فيه أياماً حتى يهدأ الطلب عنه (غار ثور) ، ولم يختره ناحية يثرب تعمية على القوم ، وهيأ مَن يأتى له بالزاد والأخبار (أسماء بنت أبى بكر) ، ومَن يعفى على آثارها بغنمه بعد رجوعها (عامر بن فهيرة) .

ومع هذا كله استطاع القوم أن يصلوا إلى الغار ، وأن يتوقفوا عنده ، وهو ما جعل أبا بكر رضى الله عنه يقول مشفقاً على مصير الدعوة إن مسَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سوء : يا رسول الله ؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا! فيرد عليه النبى ﷺ قائلاً : « يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ أو كما قال الله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٤) .

لقد فعل الرسول الكريم ما قدر عليه ، وبقى ما لم يقدر عليه ، فتركه لربه وراعيه ، يدبره بما يشاء من الأسباب الخفية ، أو بغير الأسباب أصلاً إن

---

(١) طه : ٤٦ (٢) الشعراء : ٦٢

(٣) الشعراء : ٦٣ - ٦٧ (٤) التوبة : ٤٠

شاء : ﴿ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

لقد كان الزمن الذى بين الكليم موسى والحبيب محمد - عليهما الصلاة والسلام - زمناً طويلاً امتد قروناً ، ولكن الموقفين متشابهان ، وتكاد العبارات تتفق بينهما ؛ عبارة موسى : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، وعبارة محمد: ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ ، ولا غرو ، فهما يصدران من مشكاة واحدة .

بَيْد أن الله تعالى أنجى موسى بآية حسِّية منظورة هى « العصا » ، وأيَّدَ محمداً بجنود غير مرئية ، نظراً لأن الآيات التى أيَّد الله بها موسى كانت مادية حسِّية ملائمة لتلك المرحلة فى أطوار البشرية ، والآية الكبرى التى أيَّد بها محمداً صاحب الرسالة الخاتمة كانت آية معنوية أدبية هى : القرآن الكريم .

وفى غزوة بدر خرج النبى ﷺ لملاقاة المشركين ، وإن كانوا أكثر عدداً ، وأكثر عُدة ، وأعظم غروراً ، ولكن ذلك لم يضعف من عزمه ، وفعل ما أمكنه فعله من إحكام وتدبير ، بعد الاستشارة والاستنارة ، ثم ترك ما بعد ذلك لصاحب الأمر ، فأيَّدهم بألف من الملائكة مردفين ، وغشاهم النعاس أمنة منه ، ونزَّل عليهم من السماء ماءً ليطهرهم به ، وليربط على قلوبهم ، ويثبت به الأقدام . . ونصرهم الله ببدر وهم أذلة : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَىٰ ﴾ (٢) .

وفى غزوة الأحزاب ، تجمَّعَ المشركون لغزو المسلمين فى عقر دارهم : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (٣) .

---

(١) التوبة : ٤٠ (٢) الأنفال : ١٧ (٣) الأحزاب : ١٠ - ١١

لقد حفر الرسول الخندق حول المدينة لتعويق المغيرين ، وبات هو وأصحابه ليالى عدة فى كرب شديد ، ونقض يهود بنى قريظة العهد ، ووقفوا فى صف المهاجمين . وهنا لم يكن أمام الرسول والمؤمنين إلا التوكل على ربهم والاستغاثة به : « اللَّهُمَّ منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اللَّهُمَّ اهزمهم وانصرنا عليهم » (١) .

وهنا تجئ ثمرة التوكل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (٢) ، ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ (٣) .

* * *

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

(٢) الأحزاب : ٩ (٣) الأحزاب : ٢٥

الناس والأسباب فى عصرنا

والخلاصة : . أن الناس مع الأسباب أصناف أربعة :

● معطلو الأسباب :

الصنف الأول : الذين عطّلوا الأسباب وأعرضوا عنها - بأبدانهم وقلوبهم - بدعوى التوكل على الله تعالى . وهؤلاء منهم الصادقون المخلصون ، ومنهم المتظاهرون المدَّعون .

وقد بيَّنا الموقف الشرعى من هؤلاء فى ضوء ما وضع الله من سنن ، وما شرع من أحكام ، معتمدين على المحكمات لا المتشابهات ، من نصوص القرآن والسُّنَّة ، مستهدين بعمل الصحابة ومَن تبعهم بإحسان ، مستأنسين بأقوال كبار الأئمة ، وهداة الأمة ، القائمين لله بالحجة .

وأحب أن أقول : إن هذا الصنف لم يعد يكوِّن مشكلة اليوم ، فوجوده نادر أو معدوم ، إلا ما كان من باب الادعاء أو التشبه بالصوفية الأقدمين ، فى حين ليس له علم يُؤخذ عنه ، ولا عمل يُقتدى به فيه . وهو الذى شبهه بعضهم بالبومة الساكنة فى الخراب ! كما نقل ذلك العلامة المناوى رحمه الله .

*

● المعتمدون على الأسباب دون مسببها :

والصنف الثانى : الذين تشبثوا بالأسباب ، بجوارحهم وقلوبهم ، وغفلوا عن مسببها ، وخالقها ، فكل نظرهم إليها ، وكل اعتمادهم عليها ، حتى أمست وكأنها آلهة تُعبد مع الله ، أو من دون الله !

وهؤلاء للأسف الشديد هم أكثر الخلق . فلا يكاد أحدهم يرى الرزق إلا فى الوظيفة التى يقبض راتبه منها كل شهر ، أو فى البيت الذى يدر عليه الدخل كل مدة ، أو فى التجارة التى تعود عليه بالربح كل عام ، أو فى الشركة التى ساهم فيها ، أو فى أبيه الذى تكفَّل بالنفقة عليه ، أو بفلان الأمير أو الوزير أو الوجيه الذى يسنده فى منصبه ، أو يسهل له صفقاته .

ولهذا نرى أحدهم يقول : لولا معاونة فلان لهلكنا ، ولولا ما ورثناه من

أبينا لضعنا . . وقلَّما يذكر أحد ربه الذى هيأ له هذا أو ذاك ، ورزقه به من حيث يحتسب ، ومن حيث لا يحتسب .

فكأن هؤلاء باتوا - فى أمر الرزق والتدبير - فى مرتبة دون مرتبة المشركين الذين حدَّثنا القرآن عنهم أنهم كانوا يردون أمر الرزق والتدبير ، والإحياء والإماتة إلى الله سبحانه ، لا إلى أصنامهم ولا إلى أحد من خلقه ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلاَلُ ، فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (١) .

*

● المستعينون بالأسباب على المعاصى :

والصنف الثالث : أسوأ من الصنف الثانى ، فإن الصنف الثانى اعتمدوا على الأسباب فى المباحات ، وهؤلاء استخدموها فى المحرَّمات . استعانوا بالأسباب المسخَّرة من الله على معاص الله .

استعملوا ذكاءهم وتدبيرهم فى عصيان الخالق ، وإيذاء الخلق .

واستخدموا قوتهم وجاههم فى البطش بالمستضعفين ، والعدوان على حقوق المغلوبين . وسخَّروا أموالهم ومكاسبهم فى اتباع الشهوات ، وإشاعة الفاحشة ، وترويج الفساد فى الأرض .

وجعلوا من مناصبهم وولاياتهم أداة لظلم الضعفاء ، ومحاباة الأقوياء ، والإثراء من الحرام ، وإعلاء الباطل على الحق ، والمنكر على المعروف .

حتى العلم ، وجَّهوه لخدمة المادة على حساب الروح ، ولتسير المتعة على حساب القيم . بل علم الدين نفسه ، أحالوه آلة لاقتناص الدنيا ، وتفريخ الفتاوى لأمراء السوء ، وحُكَّام الجور ، فأحلّوا ما حرَّم الله ، وحرَّموا ما أحلَّ الله ، وأسقطوا ما أوجب الله .

وكذلك الأدب والبيان ، وجَّهوه لترويج الفساد ، وإشاعة الفاحشة ، وتبرير ظلم الحُكَّام وحكم الظُلَّام .

---

(١) يونس : ٣١ - ٣٢

وقد صوَّر شاعر النيل حافظ إبراهيم أنواعاً من هذا الصنف فأبدع فى تصويره حين قال :

كم عالمٍ مَدَّ العلـــومَ حبائلاً ... لوقيعة وقطيعـــــة وفـــراقِ
وَطبيبِ قومٍ قد أحلَّ لطبِّـــــه ... ما لا تُحِلُّ شريعـةُ الخـــلاقِ
قتلَ الأجنَّة فى البطـونِ ، وتارةً ... جمعَ الدراهمَ من دَمٍ مُهْـراقِ
أغْلَى وأثمَنُ من تجاربِ علْمِه ... يومَ الفخارِ تجاربُ الحـــلاقِ
وَفقيهِ قومٍ ظلَّ يرصدُ فِقهَـــهُ ... لمكيـدةٍ أو مُســتحلٍّ طَـلاقِ
يَمْشى وقد نُصِبَتْ عليه عِمَامةٌ ... كالبُرْجِ ، لكن فوقَ تَلٍّ نِفَاقِ
يَدْعُونَه عند الشِّقاقِ وما دَرَوْا ... أنَّ الذى يدعونَ خِدْنُ شِـقاقِ
وأديبِ قَوْمٍ تَســتحقُّ يَمينُــه ... قَطْعَ الأناملِ أو لَظَى الإحْراقِ
فى كَفِّـــه قلمٌ يَمُــجُّ لُعابُــه ... سُمّاً ، وينفُــثُه على الأَوْراقِ
يَرِدُ الحقائقَ وهى بِيضٌ نُصَّـعٌ ... قُدْسِـيّةٌ عُلْويّةُ الإشْـــــراقِ
فَيَرُدُّها سُوداً على جَنَباتهـــا ... مِن ظُلْمة التَّمْويه ألفُ نِطـاقِ

لقد جعل الله الأسباب لخلقه نعمة ، فجعلها هؤلاء نقمة ، حين انحرفوا بها إلى ما يُسخط الله تبارك وتعالى .

ومثل هؤلاء : مَن شغلتهم الأسباب عن أداء فرائض الله عَزَّ وجَلَّ ، فأولئك استعانوا بالأسباب على فعل المحظور ، وهؤلاء ألهتهم عن فعل المأمور . كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) .

---

(١) المنافقون : ٩

وقد ذكر النبى ﷺ الصلاة ، فقال : « مَن حافظ عليها كانت له نورا وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومَن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأُبَىّ بن خلف » (١) .

قال العلماء : مَن شغله عن الصلاة مُلْكه حُشِر مع فرعون ، ومن شغله عنها منصبه حُشِر مع هامان ، ومَن شغله عنها ثروته وكنوزه حُشِر مع قارون ، ومَن شغله عنها تجارته وكسبه حُشِر مع أُبَىّ بن خلف .

*

● **من جمعوا بين السبب والتوكل على المسبب :**

والصنف الرابع : هو الذى أخذ بالأسباب ، ولم يغفل عن مسببها ، فهو مع الأسباب بجوارحه وبدنه ، ومع ربه بعقله وقلبه . فهذا هو المتوكل حقاً .

هو الذى رعى سُنَّة الله فى خلقه ، وأحكامه فى شرعه ، موقناً أن الله تعالى هو الذى وضع الأسباب ، وأمر باتخاذها ، ورتَّب عليها آثارها قدراً وشرعاً ، وهو - فى الوقت نفسه - القادر على أن يعطلها إن شاء ، وأن يخلق من الموانع ما يعوق سيرها ، أو يبطل أثرها .

هذا الصنف هو الذى أحسن الفهم عن الله ورسوله ، فعقل ناقته وتوكَّل ، وبذر الحَبَّ ، واعتمد على الرب ، ومشى فى مناكب الأرض التى ذللَّها الله آكلاً من رزق الله ، وباع واشترى ، ولكن لم تلهه تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . وإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، ترك بيعه ، وجمَّد سببه ، ساعياً إلى ذكر الله ، فإذا قُضِيَت الصلاة انتشر فى الأرض مبتغياً من فضل الله .

وهذا هو الذى سار عليه المربُّون الكبار من أهل الطريق إلى الله .

فكانوا « يسلِّكون » الناس ، وهم فى حرفهم وأعمالهم الدنيوية ، التى يكسبون منها معاشهم ، وهى خليقة أن تكون عبادة لهم إذا هم اتقوا الله فيها ،

---

(١) رواه أحمد بإسناد جيد كما قال المنذرى ، وقال الهيثمى : رجاله ثقات : (١/ ٢٩٢) ، وابن حبان فى صحيحه . انظر : الحديث (٢٨٣) من كتابنا « المنتقى من الترغيب والترهيب » - طبعة دار الوفاء .

فأخلصوا فيها النية ، وأدوها بالإحسان الذى كتبه الله على كل شىء ، ورعوا الحقوق ، ولم يتعدَّوا الحدود [1] .

وقد كان بعضهم يقول : ما أجمل أن يجعل الفلاح فأسه مسبحته ، ويجعل النجار منشاره مسبحته ، ويجعل الحدَّاد مطرقته مسبحته . وهكذا .

وقد حكى الفقيه الربَّانى ابن عطاء الله السكندى عن بداية صلته بشيخه أبى العباس المرسى ، وأنه كان يريد أن يقبس من إشعاعه الروحى ، وتوجيهه الربَّانى ، ولكنه سمع من أصحابه من طلبة العلم أن الذى يصحب مشايخ الطريق يضمُر حظه فى العلم الشرعى الظاهر . قال : فشقَّ علىَّ أن يفوتنى العلم ، وشقَّ علىَّ أن تفوتنى صُحبة الشيخ رضى الله عنه .

فلما ذهب إلى الشيخ كان أول ما بادره به أن قال :

« نحن إذا صحبنا تاجراً ، ما نقول له : اترك تجارتك وتعال ، أو صاحب صنعة ، ما نقول له : اترك صنعتك وتعال ، أو طالب علم ، ما نقول له : اترك طلبك وتعال . ولكن نقر كل أحد فيما أقامه الله فيه ، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه .

قال : وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ ، فما قال لتاجر : اترك تجارتك ، ولا لذى صنعة : اترك صنعتك ، بل أقرَّهم على أسبابهم ، وأمرهم بتقوى الله فيها » [2] .

* * *

(١) انظر : كتابنا « العبادة فى الإسلام » تحت عنوان « عمل الإنسان فى معاشه عبادة بشروط » ص ٦١ ، ٦٣ – طبع مؤسسة الرسالة ، الطبعة التاسعة عشرة .

(٢) انظر : « لطائف المنن » لابن عطاء الله ص ١٨٨ ، ١٨٩ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود .